الكتاب المفقود

قصة من السودان

بقلم : محمد صالح ابراهيم

كان يمشى الهوينا فى طريق « الأربعين » . وهو طريق غير مزدحم . ولو لم يكن كذلك ماكان لشعبان خام أن يطرقه فى مغدى أو رواح . فهو يتخذه قضبانا له فى ذهابه الى مكتبه فى الصباح وإذى عودته الى بيته ظهرا .

وفى منتصف الطريق كان فى جهاد عنيف مع نفسه ، لقد ذكر أن امرأته خضرة كانت قد طلبت منه أن يعطيها شيئا ماقبل خروجه ، فخرج دون ذلك . وهو الآن يحاول عبثا أن يتذكر ما هو ذلك الشيء .

وتوقف لحظة قبل أن يلج مكتبه ليتلقى تحية الصباح . فقد نهض البواب متثاقلا وانحنى مكرها وارسل تحيته فى غير ابتسام .

وجلس باشكاتب شركة الحامات الى مكتبه . ودس يده فى جيبه الأيمن فخرجت بمنديل . ثم دسها فى جيبه الأيسر فخرجت بمنديل آخر ، لقد كان يبحث عن شيء غير المناديل ..

ولم يكن قد حضر أحد من الموظفين بعد ، فنظر فى ساعته وأدرك أنه قد جاء قبل موعد العمل بعشر دقائق ولم يكن يعلم ذلك . لابأس . تناول قلما وقرطاسا وأخذ يرسم خطوطا ودوائر لا معنى لها يقطع بها الوقت .

ولما رفع رأسه ونظر فى ساعته كان قد مضى من الوقت نصف الساعة ، وكان الموظفون وقد تكامل عددهم قد بدأوا نشاطهم اليومى بقراءة الصحف .

« يا الهى . لقد حذرته أربعين مرة ألا يأخذ شيئا من مكتبى حتى آذن له . فما هذا . ما هذا ؟! أف .. لقد كدت ألقى بنفسى من النافذة فأستريح من هذا المخلوق . »

والمخلوق هذا أحد صغار الموظفين . ولم يلاحظ شعبان خام حين ألقى كلامه هذا أن النافذة تقوم بين شدقيها حواجز من حديد . وقبل أن تهدأ فورته عاد يقول : « عجيب والله أمر هذا الولد يضع يده على مكتبى متى يشاء ويأخذ منه مايشاء . ولسوف نفقد كل شيء مادام يوسف محشورا بيننا فى هذا المكتب ، وهانذا لا أجد نظارتى . لقد خلعتها و .. » .

وهنا أمسك شعبان خام عن الكلام . فقد أحس النظارة فى جيبه . ولم يكن

يوسف موجودا ، ولعله كان فى ذلك الحين محشورا فى المقصف يصيب شيئا من عصير الليمون ، بيد أن زملاءه كان منهم العاقل يرتاب فى سلوك يوسف ويشفق عليه ، وكان منهم الحاسد يتمنى له العثرة وسقوط الشأن ، كما كان منهم الخانق على شعبان خام وعلى حواجز الحديد ..

ودق جرس التليفون ورفع الباشكاتب السماعة الى أذنه الكبيرة : « ... نعم سعادتك .. حالا سعادتك .. حاضر سعادتك . »

ووضع السماعة بصوت مسموع ونهض يهرول الى مكتب مدير الشرطة وهو يقول : « المدير عايزنى . خذوا بالكم من التليفون .. من مكتبى .. من نظارتى .. »

وفى هذه اللحظة عاد يوسف من المقصف ، وخلا الجو للموظفين كبيرهم والصغير ، فخلوا بينهم وبين العمل ، وأخذوا يتجاذبون الحديث ويتقاذفون بالنكات ويغتابون رئيسهم ويعيرونه بالتسرع وعدم التريث والاتزان وغير ذلك من السمات التى تجعل للمرءوس من شخصية الرئيس لسانا طويلا حادا ..

ثم أكب كل على عمله . فقد عاد شعبان خام بسلام وانقطعت الحركة والكلام .

***

مضت برهة وجيزة كان الباشكاتب خلالها منهمكا فى مراجعة بعض الرسائل، ثم قطع حبل السكون صائحا مهتاجا :

« الكتاب ! الكتاب ! أين كتابى ؟! »

وتطلع الموظفون بانظارهم نحوه وهو يبحث عن كتابه فى كل مكان ، تحت الدفاتر وفى أدراج مكتبه وفى جيوب بذلته وفى أرض المكتب . ثم وجه الخطاب الى العيون الشاخصة اليه : « هل فيكم من أخذ كتابى ؟ هل فيكم من رأى كتابى ؟ لقد كان أمامى هنا منذ الصباح . »

وتحول عنهم بوجهه الى يوسف :

ـ أنت أخذت الكتاب .

ـ أنا لم آخذه .

ـ افتح درجك .

ـ قلت انى لم آخذ الكتاب .

ـ وأنا متأكد انك أخذته ، وهو حتما فى هذا الدرج الذى تأبى أن تفتحه مخافة أن يفتضح أمرك . ولكنك وقعت فى فخ لا سبيل الى خلاصك منه . »

قال ذلك واندفع بحماقة وحزم الى مكتب المدير بالرغم من توسلات الموظفين اليه وقد أيقنوا أن يوسف قد أسرف فى العبث الى درجة لا تليق بالموظفين .

وسرعان ماراعهم لما أقدم المدير وفتح الدرج ولم يجد أثرا للكتاب فيه . وكان قد حان موعد الانصراف ولم يبق هناك مجال للبحث والتحقيق .

كان شعبان خام يتحدث الى نفسه وهو يمشى الهوينا عائدا الى داره ، وقد نسى كل شيء الا أمر هذا الكتاب المفقود . فقد بلغ من اهتمامه به أنه يحمله كل يوم الى المكتب ويحس أنه جزء متمم له . لقد كان بادى الغضب والغيظ والحقد على يوسف . واقترب من داره وهو مازال مغيظا محنقا ولكنه كان قد انتهى الى شيء يشبه القرار وصمم على تنفيذه : « غدا سنرى مايفعله المدير ليوسف . فان لم يقتص لى منه بالعقاب الصارم فانى سوف أستقيل . سوف أرفع الأمر الى القضاء .. »

استقبلته خضرة بوجه أبعد ما يكون من البشاشة . ولكنها لاحظت أن وجهه ، على غير العادة ، مكفهر فسألته فى ذلك فقال لها :

ـ اننى اليوم مشغول البال . وما بالك أنت واجمة ؟

ـ لأنك صرت تنسانى .

ـ كيف أنساك . وهل ينسى الرجل زوجته ؟

ـ ألم أطلب اليك فى الصباح أن تعطينى جنيها قبل خروجك ؟

ـ حقا . حقا . لقد تذكرت .

ـ فلماذا اذن لم تعطنيه ؟

ـ آسف . لقد نسيت وطلع من بالى .

ـ وكذلك نسيت الكتاب ..

ـ ماذا ؟

ـ الكتاب الذى تقرأ فيه ليلا ونهارا .

ـ كلا ، لم أنسه . ولكن فقد منى بالمكتب .

ـ أنت نسيته هنا فى البيت !

ـ ماذا تقولين ؟ فى البيت !!

لقد أسقط فى يده وكاد يغمى عليه . اذ كيف أنه لم يحمل الكتاب معه الى المكتب فى الصباح كالعادة . ثم كيف ينسى ذلك ، فيتهم يوسف بسرقته ويوسف برىء ! لقد صمم أن ينبذ هذا الكتاب الذى أضر به من حيث أريد به النفع ، فلا يطالع فيه مرة أخرى ، بل لا يحمله الى المكتب مرة أخرى ، أجل لن يحمله الى المكتب بعد ذلك أبدا ..

❋❋❋

فاذا كان اليوم التالى تمنى شعبان خام أن لو لم يكن هذا اليوم من أيام الله . ولكنه الكتاب . لقد جلس فى مكتبه يفكر دون انقطاع . وبينما هو كذلك استدعاه المدير للتحقيق مع يوسف فى تهمة السرقة الموجهة اليه .

تعلق شعبان خام بذاكرته متلمسا طريقا للخلاص من هذا المأزق . فالفى ذاكرته تخونه هذه المرة كما خانته فى كل مرة ، ومع ذلك فقد صمم على ألا يبوح بالحقيقة فانها أشد مرارة وقسوة عليه من أى شيء آخر . أجل لا ينبغى أن يذكر لأحد أنه وجد الكتاب بداره . لاينبغى مطلقا ان يفعل ذلك . بل انه لايستطيع أبدا أن يبدى الاعتذار أو يحتمل التوبيخ . تلك فضيحة ينبغى

أن يضم جناحيه عليها ، ويعمى أمرهـا على رئيسه المدير حتى لايتسخط عقله . فلابد اذن أن يمثل الاتهـام فى قـوة واصرار وفى كذب وبهتان حتى النهاية. ولكنه مع ذلك ألفى نفسه تتخاذل عنه وذاكرته تهرب منه عندما سأله المدير :

ـ أين وضعت كتابك أمس ؟

ـ فى درج يوسف .

ـ أنت وضعته فى درج يوسف ؟!

ـ آسف ياسيدى . لقد ظننت أن يوسف أخذه من مكتبى .

ـ ظننت ؟! لقـد كنت بالأمس تؤكد .

شعر شعبان خام بالحرج الشديد ، واحس أنه لايستطيع الصمود ، فهاهى ذى قـواه قد بدأت تخور ، فحاول أن يوصـد باب التحقيق حين أبدى فى ضعف ووحل لا سبيل الى دفعهما عنه تنازله عن الشـكوى وانه قد سامح يوسف هذه المرة . ولكن المدير رد عليه فى حـزم أن ليس من حقـه هنا أن يسامح . وان حادث سرقة فى شركة لها سمعتها الطيبة فى البلد لايمكن التسامح فيه . ثم وجه اليه السؤال :

ـ قلت لى أمس أنك حملت كتابك الى المكتب . وكنت تقـرأ فيه أمام الموظفين ثم افتقدته بعد ذلك بقليل .

ـ أليس كذلك ؟ .

ـ نعم سعادتك .

ـ واتهمت يوسـف ولم تعثر على الكتاب معه ، هل تتهم شخصا آخر ؟

لا . سعادتك .

ثم اتجه المدير الى يوسف ووجه اليه السؤال :

ـ ان التهمة قـوية ضدك . ولقد فرضت رقابة شديدة عليك أمس قبل انصرافك من عمـلك ، ان الكتاب لم يخرج معك ، ومعنى ذلك أنه موجود هنا بالمكتب ، فى المكان الذى خبأته فيه .

ـ أنا لم آخذ الكتاب ياسيدى .

ـ أجل . هل تعرف من أخذه ؟

ـ كلا ياسيدى .

ـ ومع ذلك فانى متأكد أن الكتاب لم يخرج من دار الشركة . انه موجود هنا وعلينا أن نعرف مكانه .

ـ نعم يا سيدى ان الكتاب موجود هنا .

وعندئذ ظن شعبان خام أن يوسف يهذى . فارتاحت نفسه لهذا الهذيان . فهو يعـلم أن الكتـاب موجـود الآن بمنزله .

وأضاف يوسف والابتسـامة تملأ وجهه :

ـ ذلكم هو الكتاب !

وانتقلت عين المدير وعين شعبان خام الى حيث أشار يوسف بيده . وحينئذ انتفض شـعبان خام فزعا مضطربا . ودون وعى منه انتزع الكتاب من جيبه بشدة وانفعال صارخا :

ـ يا الهى ! أحقا أنى نسيت أيضا فحملته معى اليوم ؟! أف ..

ـ سأله المدير :

ـ وأى كتاب هذا الذى صرفنا عن أعمالنا الى هذا الحد ؟ » .

فأجاب شعبان خام :

ـ هو يا سيدى كتاب يحوى أربعين طريقة لتحسين الذاكرة !! » .